الفصل الرابع

تفنيد شاكر الدعوة إلى العامية

وكانت إحدى الشعب من الدعوات الهدامة في ذلك الوقت تتجه إلى اللغة العربية تريد أن تفرق المجتمعين عليها بمختلف الحيل والأساليب، تحت ستار من الرغبة فى الاصلاح وفى مسايرة الزمان الذى دخلت فيه الأجهزة الحديثة» فقد بدأت هذه الدعوة فى أواخر سنة ١٨٨١ حين اقترح أحدهم كتابة العلوم بلغة الحديثه مما دعا رجال الفكر إلى بحث اقتراحه .. وفى ذلك الوقت كتب حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة ، التى يقول فيها متحديا بلسان اللغة العربية :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية

وما ضقت عن آيٍ به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة

وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر فى أحشـائه الدر كامـن

فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى

بعدها عادت المسألة من جديد سنة ١٩٢٦.. حين دعا مهندس الرى الانجليزى فى مصر.. وهو السير وليم ولكوكس إلى هجر اللغة العربية، وخطا بهذا الاقتراح خطوة عملية ، فترجم أجزاء من الانجيل إلى ما أسماه «اللغة المصرية» ونوه سلامة موسى بالسير ولكوكس وأيده، فثارت لذلك ثائرة الخاصة والعامة .

ثم بدا أن الدعوة آخذة فى الانتشار، حين سارت اللهجة السوقية فى المسرح الهزلى ، ثم انتقلت إلى المسرح الجدى حين تجرأت عليه فرقة رمسيس الفرعونية الاسم.

ولكن أعجب ما ظهر من ذلك فى هذه الفترة وأغربه، مما لا يخطر على البال، هو أن الدعوة قد استطاعت أن تتسلل متلصصة إلى الحصن الذى قام لحماية اللغة العربية الفصيحة .. والمسمى «بمجمع اللغة العربية» فظهرت فى مجلته الناطقة باسمه سلسلة من المقالات عن «اللهجة العربية العامية» كتبها عضو من أعضاء هذا المجمع اسمه عيسى إسكندر المعلوف، ولعل ما يدعو إلى العجب حقا أن يختار المجمع لعضويته رجلا معروفا بعدائه الصريح للعربية وهو عداء عريق ورثه عن أبيه الذى أعلنه وجهر به حين سجله فى مقال له نشرته «الهلال سنة ١٩٠٢

وليس هذا هو كل ما يدعو للعجب من أمر هذا المجمع . فقد تقدم عضو من أبرز أعضائه هو عبد العزيز فهمى – ثالث الثلاثة الذين

شكلوا الوفد المصرى إلى المجمع فى سنة ١٩٤٣ - باقتراح كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية وشغل المجمع ببحث اقتراحه عدة جلسات ، امتدت ثلاث سنوات ونشر فى الصحف ، وأرسل إلى الهيئات العلمية المختلفة ، وخصصت الحكومة جائزة مقدارها ألف جنيه لأحسن اقتراح فى تيسير الكتابة العربية .

ألا يدعونا ذلك لأن نتساءل : هل أنشىء هذا المجمع لينظم جهود حماة العربية ، أو أنشىء ليكسب الهدم والهدامين صفة شرعية ؟.

وشبيه بموقف مجمع اللغة العربية موقف الجامعة العربية التى أصدرت لجنتها الثقافية فى ١٩٥٥ كتابا فى «اللهجات وأسلوب دراستها» لأنيس فريحه ، وموضع العجب أن الجامعة العربية هى جامعة اللغة العربية ، وأن اللغة العربية المقصودة هى اللغة الفصيحة التى تشترك فيها سائر الدول العربية . وهذه اللغة العربية الفصيحة هى وحدها الجامعة التى لا يستطيع أن ينكرها دعاة الشقاق ولا يستطيع أن يمارى فيها أصحاب الأهواء والأغراض غيهم ، فإذا تفرق الناس فيها وذهب كل بلد بلهجته . لم يستطع بعضهم أن يفهم عن بعض فينفرط عقدهم . وهل وجد الكومنولث إلا نتيجة للغة الانجليزى المشتركة بين دوله ؟ أليس عجيباً أن يستغل منبر الجامعة العربية لهدم الجامعة العربية ؟

أو ليس فى ذلك من التناقض ما يدعو إلى الرثاء ؟» .

وقد أفضت المعركة إزاء الدعوة إلى اللغة العامية .. أو كتابة العربية بالحروف اللاتينية إلى قناعة وطنية وقومية بأنها أخطر معاول الهدم ، لأن الدعوات التى تستهدف هدم الدين والأخلاق قد تضل جيلا من الشباب ، ولكن الأمل فى إنقاذ الجيل القادم سيظل كبيرا مادام القرآن حيا مقروءا وما دام الناس يتذوقون حلاوة أسلوبه وجمال عباراته .. أما هذه الدعوة الخطيرة - أو كتابة العربية بالحروف - اللاتينية فهى ترمى إلى قتل القرآن نفسه - وهيهات .. والحكم عليه بأن يصبح أثرا ميتا كأساطير الأولين التى أصبحت حشو لفائف البردى ، أو بأن يصبح أسلوبه عتيقا بالياً بتحويل أذواق الأجيال الناشئة عنه وتنشئتهم على تذوق ألوان أخرى من الأساليب المستجلبة من الغرب وبينما نجح اليهود فى إحياء لغتهم العبرية الميتة ، واتخاذها لغة للأدب والحياة ، كان بعض المفتونين من العرب ينادون - ولا يزالون - بأن اللغة العربية الفصيحة لغة ميتة ، وينشرون فى ذلك المقالات الطوال المكتوبة «بالعربية الفصحى» التى يزعمون موتها ، والتى يقرؤها أقل الناس حظا من الثقافة فى الصحف فلا يغيب عنه منا شىء ، بل إناً نرى الأميين فى الصباح وفى المساء مجتمعين حول رجل منهم لا تتجاوز ثقافته الإلمام بالقراءة ، يطالع لهم الصحف وهى غير مضبوطة بعلامات الشكل وهم من حوله يستمعون ويفهمون .

وتستطيع أن تحصر هذه الدعوات الهدامة التى تستهدف قتل العربية الفصيحة فى شعب ثلاث كذلك تتناول أولاها اللغة ، فيطالب بعضها بإصلاح قواعدها ، ويطالب بعضها الآخر بالتحول عنها إلى

العامية . وتتناول ثانيتها الكتـــابة فيدعو بعضها إلى إصلاح قواعدها ، ويدعو بعضها الآخر للتحول إلى الحروف اللاتينـــية - كما فعل كـــمال أتاتورك بالأتراك - وتتناول الشـــعبة الثـــالثة الأدب فيدعو بعضـها إلى حق يراد به الباطل عبر العناية بما يسمونه الأدب الشعبى ، ويقصدون به كل ما هو متداول بغير العربية الفصحى مما يختلف فى البلد الواحد باختلاف القرى وتعدد البيئات .

أما ما يتناول اللغة .. أو محاربة الفصحى والتخلص منها ، أو كتابتها بالحروف اللاتينية الذى تقدم به عبد العزيز فهمى وهو من شيوخ مجمع اللغة العربية - فهو ما اعتبره شاكر وهو على حق فى ذلك - قضية تتعلق بمستقبل الثقافة العربية كلها . الأمر الذى فرض عليه خوض معركة من أعنف معاركه وأشدها ضراوة ضد أنصار هذه الدعوة دفاعا عن اللغة العربية ، فبينما كان قبل هذه الدعوة يكتب بخيوط من الحرير عن الشعر فى مجلة الرسالة عن شاعر الحب والفلوات (ذى الرمة) ومنكرات عمر بن أبى ربيعة الذى أسماه فى هذه المقالات . «صديق إبليس» ، عاد إثر اندلاع هذه المعركة ليكتب بشظايا النار مقالاته عن الحرف اللاتينى والعربية ، من العدد ١٢ : ٣٠٨ : ٣١٠ فى الرسالة .. كانت كالجمر ألقاها فى حلوق المنادين بكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية .. حتى وئدت هذه الدعوة وسكت أصحابها والمتحمسون لها .

فى مجلة الرسالة فى ١٠ أبريل ١٩٤٤ كتب يقول : «عبد العزيز فهمى رجل كنا نعـــرفه بالجـــد والحرص والفقه وطـــول البـاع فى

القانون ، وكنا نظنه رجلا محكم العقل فى جميـــع نواحيه لا يتدهور إلى ما ليس له به عهد ولا يرمى بنفسه فى غمرات الرأى إلا على بصيرة وهدى ، فلما قال ما قال عن الحروف العربية فى المجمع : ونشرت الصحف قوله ورأيه قلنا : عسى أن يستفيق الرجل ويعود إلى سالف ما عهد فيه من الحكمة والمنطق : وأن يكون ما قال خالصاً لخدمة العربية ..

إن أول التضليل في رسم العربية باللاتينية أن يضيع على القارىء تبين اشتقاق اللفظ الذى يقرؤه . فإذا عسر عليه ذلك صار اللفظ عنده بمنزلة المجهول الذى لا نسب له ، وصار فرضا عليه أن يعمد إلى رسم المادة الواحدة من اللغة فى جميع صورها التى تكون فى السياق العربى، ثم عليه أن يحاول تقريب الشبه بالذاكرة الواعية ثم عليه أن يحفظ معانى ذلك كله . فإذا كان هذا شأنه فى المادة الواحدة فما ظنك باللغة كلها .. يومئذ تصبح العربية أجهد لطالبها من اللغة الصينية ، نعم ، وإذا ضل عن تبين الاشتقاق والتصريف فقد ضل عن العربية كلها لأنها لم تبن إلا عليهما ، وهى فى هذه الوجهة مخالفة لجميع اللغات التى تكتب بالحرف اللاتينى ، لأن الاشتقاق والتصريف يعرضان لها من قبل بناء الكلمة كلها حتى تختلف الحركات على كل حرف فى كل بناء مشتق أو مصرف ثم يزيد على ذلك ما يدخل الكلمة فى جميع ظروف . الحروف العاملة وغير العاملة ثم علل الإعراب والبناء والحذف ، إلى آخر كل ما يعرفه كل مبتدئ فى اللغة العربية .

وقولـه حل الطلاسم ، فـأى طـــلاسم ؟ ، أهى الطلاسم التى تدخل على كل حرف من الحروف فى المـــادة الواحـــدة ؟ ، ألوانا من الحركات تكتب بين كل حــــرف وحــرف وفـى أواخـر كل كلمـة وتقف فـواصل متباينات بين حروف مادة واحـــدة من لغـــة بنيت على الإشتقاق وعلى الاختصـار وجـاءت فيـها الجمـوع المختلفة والصفات والأبنيـة نوات المعانى .

أهذه هى الطلاسم أم تلك وأيهما أفسد لوقت المسلمين وغيرهم من أهل البلاد العربية ؟ بل أيهما أخزى وأشنع فتكا وشراسة ؟ ، بل أيـهما الذى يغول العقل لا الوقت وحده ؟

ولكنها فتنة ! فتنة ! اغتر بها شيخ صالح فاستغلها من لا يرى حقا ولا حرمة» .

عندما قرأ عبد العزيز فهمى هذا المقال الذى كتبه محمود شاكر أرغى وأزبد وشتم علامتنا بابن « ...» وعندما راجعه الحاضرون بأنه أصغر أبناء الشيخ محمد شاكر أردف «بأنه يشتهى تجريح من هو أكبر منه سنا ، حاسبا أن ذاتيته تعلو بهذا التجريح» .

ذلك ما عـرفنـاه من كتـاب شقيق مـحـمـود شـاكر ، العلامـة أحمد مـحـمد شـاكـر فى كتـابه «الكـتـاب والسـنة يجب أن يكونا مصدر القـوانين فى مصر ومعه الشـرع واللغة» الذى صدره بعبارة «وكلمة الله هى العليا» حيث كتب فى صفحتى ٥٢ ، ٥٣ وما بعدهما ولكنى أردت أن يكشف - عبد العزيز فهمى - عن مقصده الحقيـقى باقتراحه ، من كلامه وألفاظه . وأن أنقـد بعض ما عرض له من مسائل

فى العلم ، ظهر أنه لا يعرف فيها شيئا ، عرض لها عرضا عجيبا ، لو تركه ستر نفسه» .

«أما اقتراحه الميت السخيف - يعذرنى صاحب المعالى فى استعمال هذه اللفظة النابية ، فقد حاولت جهدى أن أجد خيرا منها فى موضعها ، ما عجزتنى المحاولة» .

«ثم إنى لم أر فى استعمالها بأسا ، بعد أن وصف هو بها الرسم العربى عشرات المرات فى كتابه - فما أبالى أن لا أرد عليه ، اكتفاء بما قيل من قبل ، وثقة منى أن لا تقوم له قائمة من بعد » .

وأنا أعلم أن معاليه سينطلق فى أثرى كما انطلق فى أثر الذين من قبلى ، ثائرا عنيفا ، مستعليا مستكبرا ، كأن لم يسمع كلمة الحق ، وأنه سيرمينى كما رمى أخى السيد محمود محمد شاكر «بأنه يشتهى تجريح من هو أكبر منه سنا ، حاسبا أن ذاتيته تعلو بهذا التجريح ولكن لا أبالى » .

معركته مع سيد قطب والأخوان

ومرت سنوات ثمانية على معركة شاكر مع عبد العزيز باشا فهمى ليدخل معركة أخرى فى مواجهة الأستاذ سيد قطب ، الذى كتب يزعم أنه ليس من الصواب بدء الحديث (الكلام) بعبارة : السلام عليكم .. وإنما الأصح عربياً أن يقال : سلام عليكم ويكون الرد هو وعليكم السلام .. بألف ولام التعريف . فنشر الأستاذ رده فى جريدة الأخوان المسلمين نفسها .. بأربع مقالات . اثنتين منهما بعنوان «حكم بلا بينة» العدد ٢٣ ، ٤٨ والآخرين بعنوان «تاريخ بلا إيمان» العدد ١٣٨ ، ١٤٥

وفحواها أن هذا القول زعم باطل وأن المسلمين يقولون خمس مرات فى اليوم على الأقل فى تشهدهم فى الصلاة «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته .. كما استشهد ببيت من شعر جرير هو :

يا أم ناجية السلام عليكم   قبل الرحيل وقبل عزل العزل

وبعد هذه المعركة مع سيد قطب .. نشبت معركة أخرى - بعد سنة - مع جماعة الأخوان المسلمين قاطبة وليس سيد قطب وحده : ذلك أن الإخوان كانوا فى دعواهم يقولون أن الإسلام لم يحكم به إلا فى عهد أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب . فكتب بعضهم فى هذا المعنى الذى يهاجمون به ضمنيا الدولة الأموية .

وقد سخط الأستاذ محمود شاكر على هذا المفهوم الضيق لنظرة الأخوان إلى دول الخلافة .. «وكان يتحدث بذلك مع بعض أصدقائه مستنكرا هذه الدعوة فقال له الأصدقاء ولماذا لا ترد على من كتب هذا ، فقال وأين أرد ، وقد أغلقت الرسالة ١٩٥٢» قالوا فى مجلة المسلمون ذاتها .. فقال ولكن لهذا وضع خاص فإنى كنت أستنكف أخذ أجر مقالاتى فى الصحف والمجلات إلا أنى لن أكتب فى هذه المجلة إلا بأجر فوافقوا على ذلك فكتب الأستاذ شاكر أربع مقالات :

اثنتين منها بعنوان : «لا تسبوا أصحابى» العدد ٢٤٦ ، ٢٥٥ سنة ١٩٥٢

والاثنتين الأخريين «السنة والمفترون المسلمون» العدد ٣٥١ ، ٣٥٩ سنة ١٩٥٢» أيضا رد فيها على من هاجموا حكم بنى أميه ، بدعوى أنه

غير إسلامى ، ومما قاله : إن محمد بن الحنفيه أخا الحسين بن على بن أبى طالب ، كان يتناول الطعام حينما بلغه موت معاويه ، فسقطت اللقمة من يده فسأل : فمن بويع بعده بالخلافه ؟ قالوا : يزيد ابنه ... فقال : فتى قريش وفارسها ، وعاد لتناول طعامه قرير العين مع أن يزيد هو نفسه الذى قُتل الحسين فى عهده .

وقد استدل علامتنا بهذه الحادثة ، على أن الخلافات السياسية بين على بن أبى طالب وأبنائه من جهة وبين معاوية وأبنائه من جهة أخرى لم تمنع أحدهم من أن يكون حسن الرأى فى الآخر ، ولم يذهب أحدهم إلى تكفير الآخر على نحو ما يفعل الأخوان المسلمون الآن .

ثم تساءل : ألم يكن عمر بن عبد العزيز بن مروان - الملقب بالخليفة الخامس للخلفاء الراشدين ، أمويا ؟ وعبد الملك بن مروان نفسه ألم يكن فقيها سديد الرأى ألم يكن أمويا أيضا ؟ وهل أول من ضرب الدنانير العربية وأبطل استعمال الدنانير الهيرقليه إلا أموى ؟ ثم قال : أما عما قالوه من أن الإسلام لم يحكم إلا فى عهدين فقط هما : عهد الصديق أبى بكر ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما .. بأن من يقول ذلك يدخلنا فى صراع سياسى لا نحتاجه .. ونحن لا نملك إخراج أحد من الإسلام .. وعلى ذلك فإن هذه المقولة إساءة للاسلام وليست دفاعا عنه.



هذه اللمحات مع استطراداتها المطولة فى محاولتنا رسم صورة

هذا الرجل، تؤكد أنه حقا يعيش منذ شبابه صراعا يكاد يمزقه كلما رأى الأمة العربية تنشق على كل تاريخها الماضى وتساق إلى مجزرة نصبها الغرب لها وهى نشوى بها فرحة. ولقد ملأت هذه الحقيقة عالم هذا الرجل فوهب حياته وكتبه ومعاركه التى خاضها والتى تشعبت طرقها إلى هتك الأستار المسدلة على الأشباح الغربية الخبيثة التى تريد أن تنقض على مجتمعنا العربى المسلم.. وتدك البناء العظيم الذى بناه آباؤنا فى قرون متعاقبة وصححوا به فساد الحياة البشرية فى نواحيها الانسانية والأدبية والأخلاقية والعلمية والعملية والفكرية.

ورغم قوة حجة هذا العملاق الذى يقف مدافعا عن العرب والإسلام بنبرة لاذعة: فإننى أبصرت بعض الضوء وسط هذا العالم أنار لى الطريق إلى محرابه ، خلاصته أنه إذا كان جيل العمالقة قد حال دون وصول الضوء إلى من بعدهم فغيم عليهم: عبدالرحمن صدقى - على أدهم، مع أقرانهما - فإن هذا الغيم كان واحة هادئة للذين أتوا معهم أو بعدهم على اختلاف مشاربهم ، وقد اهتديت إلى هذه الملاحظة من خلال ما كتبه هؤلاء المثقفون أنفسهم ، فحينما تقرأ السيرة الذاتية ليحيى حقى والتى تصدرت أعماله الكاملة تجده يقول:

«وأثناء عملى بديوان وزارة الخارجية. كانت الكتابة بالنسبة لى خاطرا غير تام الأدوات.. ولكن عندما توثقت صلتى بالمحقق البحاثة الأستاذ محمود شاكر، وقرأت عليه عددا من أمهات كتب الأدب العربى القديم ودواوين الشعر.. انفتح الطريق أمامى ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاهتمام باللغة العربية وأسرارها وبيانها وسحرها».

وقال لى الشاعر العظيم الراحل محمود حسن اسماعيل.. الذى قامت علاقة وطيدة وصداقة بينه وبينه علامتنا محمود شاكر منذ ١٩٣٦.. انه يعد الأستاذ شاكر إماما عليما بأسرار البيان العربى فى شعره ونثره ومرجعا حيا للثقافة العربية فى مجموعها.. وأنه كان يأنس له.. بل إنه كان الإنسان الوحيد الذى يسمح له أن يصوب له أى بيت من أشعاره.. وعندما قلت له كأنه لك كإزرا باردند بالنسبة لأليوت - قال: أنصحك عندما تعرفينه ألا تتفوهى بمثل هذه التشبيهات الأجنبية فهو يمجها ويعنف قائلها».

وعندما سألته عن تأثير شاكر عليه.. قال: «لا استطيع تحديد أبعاد ما حزته من صداقتى لمحمود.. لقد زج بى إلى الشعر الجاهلى، وأمالنى مع الشعر الأموى، وطوح بى مع الشعر العباسى، فأحاطنى بلحمة الشعر العربى وسداه جميعا.. وأستطيع القول أن شعرى قبل معرفتى بمحمود كان نبعا هادئا فجعله بحرا متلاطما». فعرفت من هذا وذلك كيف كانت تلك الرابطة القوية بين الرجلين وكذلك من قصيدة الأستاذ محمود حسن اسماعيل. فى تقديمه لقصيدة شاكر «القوس العذراء» بخطه الموسيقى الجميل.

وهاتان الحقيقتان المضيئتان - حقى، وإسماعيل، تتناقضان مع الحقائق المظلمة مع الدكاترة طه حسين، ولويس عوض، وعلى جواد الطاهر ، وإن دلت نتائجهما على شىء فإنما تدل على أن محمود شاكر كان نورا دافئا لكل صالح وأصيل، وأنه النار الكاوية لكل زائف أو جاهل ببواطن الأمور.

وهذا كله يدل على أن هذا العالم لم يشغله فى حياته، إلا البحث والاستكشاف فإذا حدق فى صورة ما، ووقعت عيناه على شائبة ما، اندفع كالاعصار لاستلالها من الصورة حتى تظل الصورة نقية، كما أنه رجل رد الفعل أيضا. وحقا إن كل الأعمال والأفعال الانسانية هى ردود أفعال بشكل أو بآخر، ولكننا نجد أن رد الفعل عند محمود شاكر يكاد يكون محركه الأول ومستفزه على الكتابة ولو كان فى حالة عزلة.. فمن المعروف أن اعتزاله الكتابة سنة ١٩٥٣ كان بدستور موثق فى أربع مقالات متتالية لمجلة الرسالة. اشهد فيها قراءه ومثقفى عصره على هذا الاحتجاج والاحتجاب من الواقع الفكرى والثقافى.

ففى مقالته الأولى فى ٥ يناير ١٩٥٣ وكانت بعنوان «فيم أكتب» لايرى أى اتجاه أو إصلاح للعالم العربى أو الاسلام» الذى اهملته أو استبعدته الأمم المختلفة بأساليبها الظاهرة والخفية، ذلك أن عصرنا كما يراه محمود شاكر وكما نحياه «مهد له جبابرة الدعاة لا أقول منذ عام أو عامين بل منذ أكثر من مائة عام حطم كل شىء قليلا قليلا حتى خر البناء كله». فهو يعزف عن الكتابة لهذه الأسباب ولأنه يجد نفسه فجأة فى موج متلاطم من الضلالات تتقاذفه ضلالات العلم المكذوب، وضلال الرأى المدلس، وضلالات السياسة الخادعة، فبأى لسان أستطيع أن أفتق للناس أسماعا غير الأسماع الذى طمسها الكذب المسموع؟ وبأى قلم استطيع أن أسلخ عن العيون غشاوة صفيقة لبسها الكذب المكتوب.

المقالة الثانية أبصر طريقك «......» ١٩ يناير ١٩٥٣ يرصد فيها

مقاصد أعداء العرب والاسلام.. فيرى ان خطتهم كانت هى «دك الحياة الإسلامية كلها، بناء هذه الحياة علمها، آدابها، أخلاقها، تاريخها، لغتها، ماضيها، وفى خلال ذلك ينشأ بناء جديد لهذه الحياة بعلم غير العلم وأدب غير الأدب.

أما الرسالة الثالثة: باطل مشرق «.......» ٢٦ يناير ١٩٥٢، يشخص فيها جوهر الحياة المعاصرة، ويصفها بأنها مثل «الباطل المشرق المضىء له فتنة تنادى كفتنة وجه الحسناء الخبيث المنبت تأخذ بعين الناظر فيقبل عليها ملقيا بنفسه فى مهالك هذا الجمال الآسر، واذا المنبت الخبيث ذرة مستهلكة فى هذا التيار المترقرق من فتنة الحسن والهوى.

الرابعة والأخيرة بعنوان غرارة ملقاة « ٢٢ فبراير١٩٥٢ ينتهى إلى أن «.......» الحياة إحساس محض والحس حر مطلق فأيما مذهب أو جماعة أو دولة حاولت ان تدمج بالختل حسا فى حس أو تطابق بالخديعة إحساسا فى إحساس فلا غاية لها الا.استعباد أحرار الحياة وتدمير سر النشأة وتخريب بنيان الله بأخس الأسلحة، بالكذب والتغرير والختل والخديعة والعبث، انهم يريدون أن يجعلوا المذهب أو الجامعة طاغوتا يعبده المضللون داعين متضرعين ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون».

وتكشف هذه الرسائل عن الخط الفكرى العام للأستاذ محمود شاكر للواقع الثقافى العربى المعاصر الذى يرى فى تشخيصه له، أنه يفقد هويته تدريجيا وتتغير بنيته شيئا فشيئا بفعل أساليب مقصودة وموجهة، حتى تصبح الهوية غير ذات الهوية، والبنية غير ذات البنية..

وهذه الرسائل تظهر فيها إلى حد ما إرهاصات منهجه الفكرى أو تحليله لتاريخ الأمة الاسلامية كما تجلى فى «الطريق الى ثقافتنا» وهو التحليل الذى ظهر بشكل منهجى أكثر فى رصده للتغيرات السياسية والثقافية بفعل صراع الأمة الإسلامية مع الغرب الإستعمارى.

وهكذا عندما نشرت البحوث التسعة «على هامش الغفران» للدكتور لويس عوض فى ملحق الأهرام.. ثار وفار ومزق المواثيق والدساتير التى كرست عزلته ، وأمسك بالقلم من جديد فكان كتابه «أباطيل وأسمار» فإذا أضفنا إلى ثورته هذه الثورتين اللتين احتج بهما على المفاهيم الخاطئة، والمآخذ الباطلة التى كتبها كل من الدكاترة طه حسين والدكتور على جواد الطاهر، ولما كانت الطبعتان الثانية والثالثة لكتابه عن «المتنبى فى المقتطف.. والذى صدرت مقدمة طبعته الثانية بكتاب منفصل عن دار الهلال تحت عنوان «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا». ولولاها أيضا ما خرج «برنامج طبقات فحول الشعراء».

عندئذ نوافق الدكتور عبدالعزيز كامل «لو لم يستفز الأستاذ شاكر لما أغنى المكتبة العربية بهذه الكتب النادرة».

ولعله من الاستطراد المفيد أن نذكر، أن رد فعل شاكر اختلف بالنسبة إلى الرجال الثلاثة ، فبينما هاجم شاكر الدكتور طه حسين.. وكان بينهما فروق فى العمر تبلغ العشرين سنة.. إلا أن الدكتور طه بعث لشاكر ولمجلس أبيه بنيليو ليقنعه بالعدول عن موقفه. وهذا إحساس أب نحو ابنه، بل إن نيلينو ربما نقل للدكتور شروط الطالب شاكر للعودة إلى الجامعة.. وهى أن يعترف الدكتور طه بعملية السطو. مع ذلك فإن شاكر ينبئنا أنه عندما تسلم أول رسالة من والده وهو فى السعودية

وجد والده يقول له: زارنى عصر سفرك للسويس الدكتور طه حسين، وأنهى الرسالة، وهذا يعنى أن الدكتور طه كان لديه شعور بالذنب تجاه شاكر، ربما لأنه يعرف بينه وبين نفسه كم هو على حق.. ذلك أن الدكتور طه عاد سنة ١٩٣٥ أى بعد تسع سنوات من صدور كتابه فى الشعر الجاهلى سنة ٢٦. فنشر فى جريدة الجهاد مقالات، تشى بأنه رجع عن أقواله السابقة فى الشعر الجاهلى، وببعض ما صارح به شاكر بعد ذلك وصارح به آخرين، من رجوعه عن أقواله السابقة بأن الشعر الجاهلى منحول ولكنه لم يكتب شيئا صريحا يتبرأ به مما قال أو كتب، وهذه كما يقول محمود شاكر كانت عادة «الأساتذة الكبار» يخطئون فى العلن، ويتبرأون من خطئهم فى السر.

كما أن الدكتور طه حسين كان أول من رشح الأستاذ شاكر للمجمع اللغوى.. لذلك فإن شاكر يحمل قدرا من الإجلال لطه حسين.. بل إنه لم يدخن يوما فى حضرته ولم يضع ساقا فوق ساق استخفافا إذا جلس اليه.

هذا ما كان من طه حسين تجاه شاكر، أما لويس عوض، فعندما جمع بحوثه التسعة فى كتاب، ظهر عن دار الهلال بعنوان على هامش الغفران سنة ١٩٦٦.

بين شاكر ولويس عوض

قال فى مقدمته: عندما نشرت هذه البحوث .. تصدى لنقدها ولنقدى المحقق المعروف الاستاذ محمود شاكر على صفحات مجلة «الرسالة» وشاركه فى هذا العبء اساتذة آخرون فى مجلتى الرسالة، والثقافة.. وغيرهما.. ولست أحسب أن كل ماكتبه نقادى عنى كان يدور حول

موضـوع الغفران، فقد استطردوا الى وجوه أخرى من انتاجى الأدبى والفكرى خلال ربع قرن كانوا قد صمتوا عنها ذلك الزمان المديد وفى مقدمة هذه الوجوه موقفى القديم من عمود الشعر العربى التقليدى ثم موقفى من تاريخنا الثقافى والفكرى إبان الحملة الفرنسية على مصر، وموقفى من تاريخنا القومى والروحى إبان ثوراتنا الكبرى على روما وبيزنطة، ثم بعض اجتهاداتى.

ومن أراد فكرة مجملة عن صورتى فى ذهن نقادى، فهى أنى، باختصار ، فى يقين بعض أدباء اليسار قائد الفكر اليمينى فى العالم العربى، كما كتب عنى الشاعر المبدع عبدالوهاب البياتى وذلك الناقد اللبنانى الشريف القلم العف البيان حسين مردة، وأنى باختصار فى يقين بعض أدباء اليمين قائد الفكر اليسارى الماركسى الملحد فى العالم العربى. كما كتب عنى نقاد مجلتى «الرسالة» و «الثقافة» وغيرهما . وفى يقين فئة ثالثة أنى آخر قنصل للعالم المسيحى فى مصر منذ الحملة الصليبية، كما كتب عنى الأستاذ محمود شاكر فى كتابه «أباطيل وأسمار» وهو الجزء الأول من مقالاته عنى فى مجلة الرسالة، وفى يقين فئة رابعة»..

«كل هذه المتناقضات كتبت عنى فى فترة «الغفران» أو حولها، ولاشك أنى انتفعت بشىء قليل من نقد نقادى، ولاسيما الأستاذ المحقق محمود شاكر ولولا جموحه وجنوح قلمه لانتفعت من علمه كثيرا».

«ولكنى فى الحق لم أكن إلى حين قريب.. أتصور أنى أمثل هذه

الخطورة فى الثقافة العربية أو على الثقافة العربية بحيث يصدر عنى فى عام واحد ثلاثة كتب هى «الغزو الفكرى» لجلال كشك و«أباطيل وأسمار» «لمحمود شاكر». و«دراسات نقدية فى ضوء المنهج العلمى الواقعى «لحسين مروه» عدا مئات من عرائض الإتهام».

«ولكنى ـ والله أحمد ـ لازلت فى يقين الكثرة الغالبة من المثقفين العرب، ولاسيما المعتدلين منهم، خادما مخلصا من بين خدام الثقافة العربية.. وأنى قد أصيب وقد أخطىء فيما أكتب وفيما أرى، ولكن شططى لا يوصد دونه باب الغفران لأنه من شطط الاجتهاد لا من شطط الضمير..».

ولكن الدكتور لويس عوض عاد بعد هذا الكلام بسنة أى فى عام ١٩٦٧ فوجد أن هذه الكلمات لم تشف نفسه من محمود شاكر ورؤيته فى الحياة المعاصرة ومن غيظه من هؤلاء الذين يصوبونه كلما كتب مقالا مثل الأستاذ عبدالجليل حسن الذى رد عليه عندما علق على كتاب الجبرتى عن الحملة الفرنسية على مصر فقال إن العاهرات المصريات السمراء منهم. والبيضاء كن يتسورن ثكنات الجنود الفرنسيين، لأنهن عرفن أن الفرنسيين قاطبة يريدون مطلق المرأة تعليق كان لويس لأنهم جاءوا بمبادىء الثورة الفرنسية التى لاتفرق فى البشرية بين أسود وأبيض.. وأنهم نادوا بحرية المرأة، وقد كتب له الأستاذ عبدالجليل أن كلمة «مطلق» فى قاموس الجبرتى تعنى «أى امرأة» ولكل عصر قاموسه الخاص.. أى أن مطلقه ليست مبادىء الحملة الفرنسية فى تحرير المرأة.

ورغم غيظه أيضا من الأستاذ الدكتور مندور الذى قال هو عنه فى كتابه «مذكرات طالب بعثة»: إنه من غير مندور كنت دخلت باريس حمارا وخرجت حمارا» لذلك فإن الدكتور مندور بعد صدور هذا الكتاب لم يناده إلا بهذا الاسم.. بل إنه صوبه أيضا يوم نقد ديوان صلاح عبدالصبور أحلام الفارس القديم عندما جاء على سهو مطبعى للهمزة فى أحد أبياته.. فكتب لويس عوض.. إن صلاح أجرى عملية السنكوب على الهمزة فلما فتح الدكتور مندور دائرة المعارف أمامى وأمام لويس وجد أن مصطلح سنكوب شعريا هو بحر «الأيامب» المتحرك فى الشعر الإنجليزى، حركتان وسكون وحركتان وسكون ويقابلها موسيقيا قياس ترديد النغم بين وتر وآخر.

وعاد لويس عوض سنة ٦٧ ليصدر كتابه «المحاورات الجديدة» ودليل الرجل الذكى إلى الرجعية والتقدمية» وغيرهما من المذاهب الفكرية من كل صوب ، الذى ارتأى فيه الحوار مع كل المشتغلين بالأدب والفن، وعلى مختلف درجاتهم ومناصبهم، الإعلام منهم وأنصاف الأعلام والنكرات ليصور لنا حقيقة الصراع الفكرى الدائر فى مجتمعنا ـ كما يراه هو ـ ولكى يتحاشى أن ينظر فى أعين هؤلاء جهارا راح يصنع لكل منهم قناعا، *أما وصف القناع واسمه فهو رأى لويس عوض الرمزى فى* هؤلاء الأدباء.. وأوضح شخصيات الكتاب هم على الزيبق الجوكى الشهير بالزمبرك. الأيديولوجى الفهلوى، ابن ملكوف بن سيركوف، بقال العروبة وصور الأستاذ محمود شاكر تحت قناع «مجاهد بن الشماخ، والمعلم التاسع الذى تخلف عن الحضور بحكم السن هو طه حسين

واحتجز لنفسه قناع المعلم العاشر».. وكان كلما إحتاج الى مشورة بعض الخبراء الأجانب الذين يؤيدون رأيه جاء بهم من قبورهم ثم أعادهم إليها بعد أن يدلوا برأيهم.

وعندما خال أن الأقنعة ستؤدى دورها بدقة احتاج للموضوع الذى ستدور المحاورات حوله، فاختارله قناع «قضية المرأة» ومكانتها خلال العصور وفى مجتمعات مختلفة، ليثبت: أن المرأة الحديثة أقل وقارا من المرأة فى العصور القديمة باعتبار أن هذا الموضوع موازٍ لموضوع الفكر والفن، ومن الممكن أن تنعكس عليه مواقف شخصياته التى تمثل حركة الأدب والفن فى مصر وهى حركة يراها الدكتور لويس عوض عقيمة بوجه عام، تدور بين قطبين كلاهما زائف اليقين: قطب يمثل انتهازية اليمين والآخر يمثل انتهازية اليسار وبينهما حلف مدنس....» وبين هؤلاء وهؤلاء حكيم صادق الإيمان راسخ العلم هو المعلم العاشر. الذى يواجه مجاهد بن الشماخ أو الأستاذ محمود شاكر بثبات ويقين ـ ومجاهد بن الشماخ اسم استلهمه الدكتور لويس من قصيدة شاكر الملحمية «القوس العذراء» المبنية على شعر للشماخ وهو شاعر مخضرم ـ وجعله العربى التقليدى الذى يهش فى وجه كل جديد متهما إياه بالسذاجة.. ويصيح فى كل وارد.. بأنه من أفعال المبشرين أو أنه مؤامرة صليبية. تذكروا بيزنطة هؤلاء هم أعداؤنا التقليديون، قولوا معى فلتسقط صولون وأهل صولون: إننى سيلفى وأفخر بأنى سلفى.

وبذلك يكون لويس قد فشل، لأنه خلط فى تصويره لشاكر بين

الأصالة التي يدعو إليها عالمنا.. وبين التقليد الذى يتصوره لويس تجديدا.

وقد انقسمت آراء النقاد حيال هذا الكتاب، إلى مؤيدين ومعارضين وربما كان مرجع التأييد أو المعارضين إلى إستشفاف المتصدين لنقد الكتاب لشخصياتهم من وراء الأقنعة.. فانبرى كل يدافع عن نفسه ويدفع التهمة الموجهة إذا كان قد تكلم، ويطالب بالكلمة إذا كان قد أتى به ولم يتكلم إلا أننى لم أقرأ بين كل هذه الردود، رد محمود شاكر، وأكثر الظن أن الأستاذ شاكر اعتبر كتاب لويس عوض برمته.. نكتة يضحك منها.. كما ضحك قبل ذلك من «بلوتولند» وقصائد أخرى «الذى أصدره لويس عوض سنة ١٩٤٧ حين كتب شاكر فى صفحة ٩٠ من كتابه «أباطيل وأسمار» فرغت من المقدمة، وأنا أعدها تحفة، لاستخراجها الضحك من قبضة التقطيب والعبوس فلما أفضيت إلى ما سماه «من شعر الخاصة» وجدتنى قد ظفرت بما فوق المنى، بترياق للهم عجيب فمن يومئذ خف «أجاكس عوض» على قلبى جدا، ورأيته ذخيرة تصان وطرفه عزيزة لاتمتهن..».

واسم أجاكس عوض أسئلة الأستاذ شاكر بدوره من مقال للويس عوض فى وداع الدكتور مندور، حين شبه مندورا بأخيل، محاصر طروادة، وشبه نفسه بأجاكس، وهو كما صوره هوميروس فى شعره مخلوق جرىء شديد البطش ولكن بلا عقل وبلا حكمة، ثم زعم أنه ومندور.. أى أخيل وأجاكس خرجا فى صباح الحياة إلى قصر الربة

أثينا، صانعة الدروع، لتصنع لنا دروع الفكر وتملأ جعابنا بسهام الحرية.. وفى صباح الحياة عدنا معا لنحاصر طروادة، مدينة الموت، ذات الأبراج السوداء والأبراج العالية.. وهو يرمز بطروادة هنا إلى مصر ورجعية الفكر فيها، ويزعم الدكتور لويس أو أجاكس أنه خاض ألف معركة ومعركة، وأنه نازل الأبطال، وصارع الأهوال، فلم يلن له عزم ولم تنكسر له إرادة حتى إن مندورا ناداه وهو فى فراش الموت وقال له: «يا أخى إلبس دروعك، وتأهب لنخرج معا فى غزوة جديدة عظيمة، ولنطلب فى هذه المرة الملك ميداس نفسه، ذا الجعارين الذهبية الكثيرة» وهو بلاشك لايعنى الأستاذ شاكر وإنما يعنى رئيس الجمهورية العربية المتحدة يومئذ فى سنة ١٩٦٥.. الذى يصبر على لويس عوض وأمثاله. وإن كان شاكر يرى أنهم أساءوا لهذا الصبر، لأن ضررهم يتعداهم إلى جماهير الناس. وقد عرفت أن رئيس الجمهورية العربية المتحدة يومئذ فى سنة ١٩٦٥ قد اعتقل أجاكس، ومجاهد بن الشماخ .. أى لويس عوض، وشاكر الذى اعتقل مرتين الأولى لمدة تسعة أشهر فى الفترة معها بين ٩ فبراير ١٩٥٩ إلي أكتوبر منها والثانية لمدة ثمانية وعشرين شهرا من ٣١ أغسطس ١٩٦٥ وحتى ٣٠ ديسمبر ١٩٦٧ (٣٠ رمضان ١٣٧٨ هـ).

وحول هذا التشابه بين لويس عوض، والأستاذ محمود محمد شاكر كتب الدكتور شكرى عياد.. صديق الطرفين.. شهادة بمجلة أدب ونقد مايو ١٩٩٠ استهلها بقوله: «للويس عوض فى عقلى وقلبى مكانة لاتضارعها إلا مكانة خصمه اللدود محمود محمد شاكر».

أذكر حين توثقت معرفتى به قلت لأستاذنا محمود شاكر: أتعرف أنك ـ على شدة عداوتك للويس عوض ـ تشبهه أو يشبهك من نواح كثيرة؟

اجابنى بحركة عنيفة، أى بالفعل المنعكس قائلا: أعوذ بالله!.

وأعدت القول نفسه للويس عوض، فأشاح بوجهه ولم يتكلم، لم أكن أفكر ـ بالطبع ـ فى أن أجمع بين الرجلين، ولكنه مجرد خاطر مجنون.

يقولون إن الماء والنار لايجتمعان فهل يجتمع النقيضان ؟

لقد طاف بخاطرى الشبه العميق بين الرجلين لأن كلاهما اعتقل نحوا من ثلاث سنوات.. مع أن محمود شاكر كان وقتئذ على خلاف مع الإخوان، ولويس عوض بعيد عن التنظيمات الشيوعية.

كلا الرجلين عالم فنان فى معظم ما كتب. ولابد للعالم من قدر من الخيال يسيطر على عمل الفنان... فلويس تدفعه نزعته العالمية إلى فروض موغلة فى الخيال، أما محمود شاكر فيتحاشى الوقوع فى ذلك بوقوفه الطويل أمام النصوص الأدبية متذوقا ومفسرا و.... و....

لقد كان إخلاص لويس لنزعته العالمية الليبرالية توقعه غالبا فى المأزق، بألوان من الأذى، بينما لايعد هجوم محمود شاكر، بالقياس إلينا سوى دعابة من تلك الدعابات اللاذعة التى يمارسها الأدباء.

★★★

هذا عن رد فعل لويس عوض، أما رد الدكتور جواد على الطاهر، على كتاب «طبقات فحول الشعراء» فقد كان هادئا.. وكأنه يشكر

الأستاذ محمود شاكر على حسن صنيعه.. إذ كتب فى باب ثابت له فى مجلة «الفيصل السعودية العدد ٩٦ مقال بعنوان «وأنت تقرأ» عن محمود شاكر، استهلها بقوله: «لى رأى أوردته فى أكثر من مناسبة، وبحضور أكثر من صديق، وهو رأى ثابت كان ـ ولايزال ـ قائما حيث هو، ولم يحل حائل عن تثبيته أى توجيه نقد محمود شاكر له فى كتابه برنامج طبقات فحول الشعراء ـ لأنه ليس رأيا خاصا لمنفعة خاصة، وإنما هو فى مصلحة العلم وخدمة اللغة.. وإذا كان المثل الذى يوضح الرأى ويوجبه هو الشيخ محمود شاكر ـ فقد تكون له أمثلة أخرى يعرفها السامعون أو القارئون».

ثم يروح ويجيىء وكأنه يلقى محاضرة أكاديمية على طلبة مبهورين ببلاغته ليقول: «الشيخ محمود شاكر نادر المثال، ومنقطع النظير فى الباقى من السلف فى فهم النص العربى وتفهم وفك مغاليقه، وبلوغ أسراره و.... و...... ولقد اقترحت ذات يوم فى أوائل سنة ١٩٧٠م، دعوة الشيخ محمود شاكر أستاذا زائرا فى قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة بغداد، وفى ذهنى أن ننتفع به نحن الأساتذة قبل الطلبة.. أجل ولكن ما كاد الاقتراح يخرج عن أسلة اللسان حتى جوبه بسؤال لا معنى له: ما شهادة الشيخ محمود شاكر؟» ..

حتى جاء اختيار الشيخ محمود شاكر عضوا عاملا فى مجمع اللغة بالقاهرة شهادة لمن يطلب الشهادة.

والمقال مليىء بالغمز واللمز وكان بودى تحليله.. والخروج منه

بصورة تضاهيها فى كتبه لولا أن هذا يخرجنا عن موضوعنا الأصلى.

ونحن بالطبع لا نعرف إجابة محمود شاكر على من يبحث له عن وظيفة ولكنى أعرف أن العلماء هم الذين يشد إليهم الرحال، وليس العالم هو الذى يدور بعلمه على الجامعات يحمل علمه ويعرضه لعله أو عساه أنه يجد وظيفة.. ثم إنى قرأت للأستاذ جواد فى المقال نفسه حول حزازات الجامعيين تجاهه عندما قال: «لنعاقب الجيل القائم على المسئولية فى الجامعة.. ولاشك فى أنهم يعرفون قدر الرجل ـ شاكر ـ حق المعرفة، ولا يكاد يوجد بينهم من لم يزره فى بيته وينتفع بعلمه أو رأيه ويجد جوابا حاضرا لمسألته.. ويعرفون أكثر من ذلك السيل الذى يجرى نحو بيته من طلبة الماجستير أو الدكتوراه ليجدوا عنده ما لا يجدونه عند أساتذتهم الدكاترة المشرفين، ثم إن الأستاذ شاكر نفسه قد أجاب على من يبحث له عن عمل وهو الدكتور جواد على فى «البرنامج» نفسه الذى رد به عليه.. فعندما قال له الدكتور جواد: ليس لمحقق ـ كائنا من كان ـ أن يحكم منطقه فى اسم الكتاب الذى يوكل إليه. فرد الأستاذ شاكر: ليس صحيحا أن أحدا «وكل إلىّ» تحقيق كتاب «طبقات فحول الشعراء» وأنا لا أرضى هذا لنفسى، ولا أرضاه لأحد من أهل العلم.. فلا حضرته.. وكل إلىّ «تحقيق الكتاب» ولا دار المعارف ولا أى هيئة علمية أو دولة أيضا «تكل إلىّ» تحقيق هذا الكتاب أو غيره، بل العكس هو الصحيح، بأن أهل العلم هم الذين يكلون إلى دار المعارف وإلى غير دار المعارف، طبع ما كتبوه أو حققوه.



عبقرى فى التفكير
فذ فى تحقيق التراث

كل هذه الأحداث والمواقف التى صادفتنى فى طريق البحث عن ماهية هذا الرجل أكدت أن الأستاذ محمود محمد شاكر رجل موسوعى فى المعرفة وعبقرى فى التفكير وحبر فذ فى تحقيق التراث، جعلته من الرموز التى تفخر بها الأمة فى حاضرها وأن يتسم فكره بالعمق والأصالة وطول النفس، وله نظرات يختلف فيها مع بعض الكتاب والمفكرين الإسلاميين أرى ـ مع الكثرة ـ أنه أقرب إلي الحق فيها من مخالفيه.

كل هذا جعلنى أتهيبه يوما بعد يوم.. ولم تتعارض هذه الهيبة وتقديرى له تقديرا لا حد له.. ولن يثبطنى عائق عن سعيى لمعرفة المزيد عن شخصيته، ليقينى أن هذا الإصرار، هو السبيل الصحيح الذى يصل بى إلى اللقاء الذى أحلم به.

ورغم أنى عشت تحديه ومراجعته للدكتور عبدالغفار مكاوى على صفحات مجلة المجلة، سنة ١٩٦٩ حول مفهوم جوته للأدب العربى بوجل شديد، فإنى لم انقطع عن الإلحاح على الأصدقاء الذين يعرفونه أن يصطحبونى إليه.. وعندما طال هذا التسويف منهم.. بحثت فى «دليل التليفون» فلم أعثر على رقم تليفونه.. ولما كان أحد تلامذته الشاعر الحسانى حسن عبدالله زميلا سابقا لى بلجنة القراءة بمؤسسة السينما فقد رجوته أن يصطحبنى معه إلى الأستاذ شاكر ولكنه رفض فى تصميم.. وعندما سألته لماذا هذا التعنت الأخير وقد ألححت أنت نفسك

بأن أصحبك لأستاذك العقاد واعتذرت لك برفض والدى؟ قال هناك اختلاف بين الرجلين وسكت.

ولا أعرف لماذا أشعل هذا الرفض جذوة الرغبة في التعرف على الأستاذ شاكر، ذلك أنى اعتبرت أعماله وآثاره، ليست بديلة عن معرفته، هو، هو الذى نفخ فيها من روحه. كما أنه لا أحد يعرف مفتاح شخصية ما إلا بعد أن يعايشها ويحيط بعاداتها، وأساليبها، وميولها، حقا إن كل ما قرأته مما أودعه كتاباته من حياته، وتجاربه التى أوصلته إلى ماهو عليه من قدرات وحتى معرفتى بالمؤثرات التى أثرت فيه والمحن والشدائد التى مرت به ومر بها حين كان يؤمن وحده برأى يخالف فيه من حوله، بل وأزماته النفسية التى اعترضت طريقه حتى آمن إيمان المقتدين.

لكن هذا كله لم يقدم لى وصفا كاملا.. لبيئته ووسطه وظروفه حتى يمكننى الاعتماد عليها فى نتيجة كنت توصلت إليها من قبل وأردت أن أجد ما يؤيدها وهى أن حياته انعكست على أعماله، حتى يمكننا أن نعد شاكرا من الكتاب والشعراء الذين تتخذ حياتهم ميزانا لأعمالهم وآثارهم، لأنه لم يضف إلى هذا النبذ الشخصية فى كتبه.. أى تجربة من الخارج ولا أى حادثة من شأنها أن تضع لثاما بين القارىء وبين حقائق حياته... كما نجده فى الترجمات الذاتية التى تظهر فى شكل رواية.

وما أن بدأت أعلن للمحيط الثقافى من حولى عن عزمى مقابلة

الأستاذ محمود محمد شاكر.. حتى أشفقوا عليّ من هذا اللقاء.. وبدأوا يصكون أذنى بدندنات صاخبة.. إنه منغلق على الإسلام.. يكره الثقافة الغربية والمثقفين بها، ويربط فى أحكامه دوما بين المسيحية والوثنية فى مقابل الثقافة العربية والإسلامية.. ثم إنه سلفى رجعى مغرور يعانى من مرض العظمة، ليس لديه كف عن التعبير السريع عما يرى.. هل تابعت مواقفه من الدكتور طه حسين و.... و....... كل هذا أحبطنى بعض الوقت، لكنى كلما أمعنت في هذه الكلمات ضاهيتها بما قرأت له وعنه ذابت إحباطاتى التى شعرت بها لأول وهلة.



التهمة الأولى التى التصقت بشاكر، إزاء عدم حبه للمسيحيين بدليل نقده القاسى للدكتور لويس عوض، عندما كتب عن أبي العلاء المعرى «وسامى داود» الذى كتب عن المظاهرات التى انفجرت بها الجامعة احتجاجا على الكتب التى يدرسها قسم اللغة الانجليزية، والمليئة بالعيب والشتم فى الإسلام وسيدنا محمد.. وأسعد حليم عندما قدم على صفحات جريدة الأخبار... خبرا مهما جدا، عن موافقة مجلس اللوردات البريطانى على تعديل قوانين الشذوذ الجنسى، وإباحته لبالغى الرشد، ثم يذكر كثيرا من الشخصيات التى مارست هذا الشذوذ، فكان ممن ذكرهم «كتشنر الرجل الذى كان له دوره المشبوه في السودان، وفى مصر، والذى أقيم مستشفى لتخليده فى شبرا، والأستاذ زاهر رياض، عندما كتب عن الدين الإسلامى والحبشة، وقبلهم وقبلهم جورجى زيدان.. بما كتبه من روايات تزيف التاريخ الإسلامى، كذلك مجلته

الهلال التى كانت تستقطب كل موضوع يخالف الإسلام ككتاب اللغة العربية بالحروف اللاتينية ورفع الحجاب».

والحق أن المتأمل في حياة الأستاذ شاكر يستطيع ببساطة أن ينفض هذه التهمة عن الرجل.. لأنه... لم يأت بقدر من المنقبية والشمائلية قدر كلامه عن الأستاذ فؤاد صروف... صاحب المقتطف.. كما أنه لم يهد كتبه لأحد.. لا لوالده أو والدته أو لأحد من إخوته أو أساتذته وأصدقائه.. وأما قصيدة القوس العذراء والعهدة على الأستاذ الغضبان والذى كتب أن القصيدة، كانت عندما التقى شاكر بصاحب دار المعارف شفيق مترى... وهنا نجد أن الفن ـ مجازا ـ يصل بين الأرواح المؤتلفة.

بل إنه من شدة حبه للدكتور مجدى وهبه العلمانى الفكر ـ فإنه دوما يداعبه: كنت أتمنى أن تصحبنى فى الجنة، والله يا مجدى لولا علمانيتك اللعينة، ثم أننى لم أر الأستاذ وديع فلسطين يهل على مجلس محمود شاكر إلا ووجدته يحتضنه ويقبله، وقد ذكر الأستاذ نسيم مجلى المدافع الأول عن لويس عوض ـ فى كتابه عن مفهوم شاكر للأصالة القومية ـ عن النبل والعظمة وفيض حنان محمود شاكر وهو يستقبله فى بيته ويشعره بأنه من أفراد هذه الأسرة العريقة الكريمة.

وبعد تبرئته من التهمة الأولى: نأتى إلى التهمة الثانية، وهى كراهيته لثقافة الغرب وأنه، لا يأنس لأصحاب هذه الثقافة، فنجدها باطلة بدليل أنه استشهد كثيرا بكلمات «ت س اليوت» ونجد مصداقا لذلك، محاضرته فى السعودية، فعندما أراد أن يحدد كلمة ثقافة قال: وقد

أراد بعض الغربيين أن يجمعها فى سياق واحد فقال: إن ثقافة الشعب ودين الشعب، مظهران مختلفان لشيء واحد لأن الثقافة فى جوهرها، تجسيد لدين الشعب، وقال أيضا: «إن السير إلى الإيمان الدينى عن طريق الاجتذاب الثقافى ظاهرة طبيعية مقبولة»... ثم أردف شاكر بما استهل به حديثه... فقال: وهو تعبير صحيح فى جوهره يجمع هذه المميزات المبعثرة فى إطار واحد، ويجعل تمييز ثقافة عن ثقافة واضحا من خلال النظر فى أصول التدين الذى هو فطره فى طبيعة الإنسان حامل الثقافة ومؤديها إلى من بعده، زد على ذلك أنه كثيرا ما يرجع إلى تعريفات توينبى التاريخية.

أما الأستاذ يحيى حقى وهو رجل يتذوق الأدب الغربى عامة، والفرنسى خاصة، فلا يفوته حديث تليفزيونى ولا إذاعى إلا وذكر الأستاذ شاكر.. وشمولية وتعددية ثقافته وأنه ـ شاكر ـ هو الذى هيأه للكتابة أصلا.. حتى إن الأستاذ الصحفى مفيد فوزى.. والمذيعة ليلى رستم ذهبا.. يتفاوضان معه على حديث يتمم حديث الأستاذ يحيى حقى.. لكن شاكر اعتذر رائيا أن كل ما يرسل على شاشات التليفزيون للفرجة فقط وليس للتثقيف».

زد على ذلك .. أننى تأكدت من الكلمات التى طالما رددها من أنه لا يخاصم الناس لأفكارهم.. حتى لو كانوا ذوى ثقافة غربية.. فقد وجدته وفى رده على الدكتور عبدالعزيز الدسوقى «المتنبى ليتنى ماعرفته»، أن يصف كتابه التفكير العلمى للدكتور فؤاد زكريا بأنه جيد، وبعد ان يورد مقاطعا يستحسنها منه يستدرك قائلا: التفكير العملى مع أن صاحبه

رجل يفخر بأنه علمانى، أننى عندما عرفت أنه أخذ امتياز «مجلة العصور» من الأستاذ إسماعيل مظهر، لتصدر أسبوعية بعد أن كانت شهرية.. تعجبت.. كيف يأخذ امتياز مجلة متحررة كالعصور ومن رجل متحرر الفكر كالأستاذ إسماعيل مظهر الذى يصدر فى جل كتاباته عن الداروينة «التى تخالف ديننا الحنيف الذى قال فى سورة الرحمن «خلق الإنسان من صلصال كالفخار» وداروين يقول أن أصل الإنسان هو القرد، والقرد فى فكر علماء المسلمين إنسان متقهقر.. وليس الإنسان قرد متطور.. فقيل لى إنهما صديقان حميمان وستقرأين عندما تلتقين به إهداءات الأستاذ إسماعيل مظهر على كتبه المهداة للأستاذ شاكر، ثم إنه قد ذكر اسم صديقه يعقوب صروف.. من بين رجال الماسونية فى مصر... وهى جمعية سرية يكرهها محمود شاكر بلا ريب.. فهل نطلق على شاكر المثل القائل «وعين الرضا عن كل عيب كليلة»... أم أنه حقا لا يخاصم الناس على أفكارهم ولا يفسد الخلاف عنده ودا.... ربما، وربما، أن المثل يقول قل لى من أصدقاؤك أقل لك من أنت.

الثقافة العربية الإسلامية
مقابل الثقافة الغربية الوثنية

أما الذى حيرنى فى كتاباته للوهلة الأولى، فهو مقابلته دوما بين الثقافة الغربية الوثنية وبين الثقافة العربية الإسلامية، مع أن العرب قلة فى الإسلام.. ذلك أن المسيحية حاربت الوثنية، بل إنه بعد ما تم إيمان الرومان واليونان بالمسيحية.. وضعوا كتب الوثنية تحت «قبة»... وهى

الكتب التى طلبها هارون الرشيد من شارلمان.. كرد لهديته «المزولة» أو الساعة.. ثم ترجمها العباسيون وظهرت آثارها فى عصر المأمون.. الذى كان محنة للأئمة أجمعين حيث ثار السؤال.... هل القرآن قديم أم جديد؟

فلماذا يربط الأستاذ دوما بين المسيحية والوثنية؟... لدرجة أنه إذا اضطر أن يستحضر تحت سن قلمه كلمة ذات دلالة وثنية لتعبير «الربة أثينا» التى أمرت أجاكس «عوض» أى لويس عوض.. أن يحرر طروادة.. فإنه يردف كلمة «الربة» بعبارة و«أنا أستغفر الله من ذكر هذه اللفظة الأخيرة، وخطها بالقلم فإن الله قد عافانا من عبادة الأوثان، وخلعنا من أعناقنا ربقة العبودية لغير الله الأحد.. الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد..»

لقد وجدت عند شاكر نفسه.. أسباب ابتعاده عن هذا الأدب الغربى بشكل مبدئى، فقد كتب فى رده على الأستاذ سامى داود.. الذى كتب فى رثاء الدكتور مندور عن دوره الرائد فى الجامعة ـ فقد كان مندور يدرس للأستاذ سامى داود، رغم أنه كان مسيحيا دخل القسم العربى بكلية الآداب، لأنه كان محبا للدكتور طه حسين عندما قال: خلت الجامعة من الحماسة، وكتب شاكر معلقا على هذا الخطأ اللغوى» وهذا المصدر اكتسبه من دراسته فى قسم اللغة العربية!! «الحماسة». لم نعرف من المعارك، إلا معركة تدور حول كتاب لبرناردشو يقرؤه طلبة قسم اللغة الانجليزية، فتأتى بمحافل الرجعية «خذ بالك جدا!!» تعتدى على كلية الآداب، وتقتحم مكتب عميدها، وقبيح بالمرء أن يكون كذابا، وقديما كان يقال: وإذا كنت كذوبا فكن ذكورا». فالمعركة التى يذكرها

سامى داود وهو إنسان مترفق جدا، ناعم الملمس جدا، لم تكن حول كتاب نكرة لبرناردشو، ولم ينفرد بها هذا الكتاب وحده فيحسن إذن أن نقص القصة، ليقف القارىء على الروابط التى تربط هؤلاء الناس بعضهم ببعض.

كانا كتابين يدرسان معا، فى سنة واحدة، أحدهما هو «جان دارك» لبرناردشو وفى سياق أحاديث هذه القصة، مقالة لرجل يقال له «كوشون» ذكر أن جان دارك كانت تبعث بكتبها إلى ملك الانجليز، لكى يخضع لأمر الله الذى أوحى إليها، فيعود إلى جزيرته، وإلا باء بغضب من الله، وأنها هى ستنزل عليهم غضبه، ثم يقول ما نصه: «ألا فاعلموا أن إرسال هذه الكتب عادة جرى عليها قديما محمد عدو المسيح».. ثم مضى يصف أمر هذه الفرنسية المتنبئة فقال: ويمثل هذا قام عربى جمال، فطارد المسيح وكنيسة المسيح حتى طردهما جميعا من أورشليم، ثم مضى يضرب فى الأرض، فيبث فيها الفزع والخراب.. حتى إذا بلغ مغربها قام جبل الأبواب وهى جبال البرانس دونه وقامت رحمة الله، وحيل بين فرنسا وبينه، فنجت من لعنة الله، فما صنع هذا الجمال العربى فى بداية أمره أكثر مما صنعت هذه الفتاة؟ جاءه الوحى من جبريل، وجاءها من القديسة كاترينة، والقديسة مرجريت، والمبارك ميخائيل وأذن فى الناس بأنه رسول الله، وكتب الكتب إلى الملوك باسم الله، ثم يقول بعد قليل «إنا والحمد لله الآن بخير، فليس فى الدنيا إلا محمد ومخدوعوه وإلا الفتاة جان ومخدوعوها، ولكن كيف يكون الحال، إذا خالت كل فتاة أنها جان، وخال كل رجل أنه محمد؟

ثم تأتى بعد ذلك أسطر قالها رجل من رجال القصة يقال له «ورك» فزعم أنه حج إلى بيت المقدس، ورأى بعض أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، قال: «فلم أجدهم من سوء الأدب بالمكانة التى أفهمونيها قبل، بل وجدت لهم أدبا لا يقل من بعض الوجوه عن أدبنا».

★★★

ويردف الأستاذ شاكر... «وبالطبع هذا شىء لايثير سامى داود أو أجاكس عوض إذا سمعه أو قرأه، ولكنه آثار «الرجعية» أى المسلمين، ولكن استغفر الله مما خط القلم، وصلي الله على محمد صلاة طيبة نامية مباركة، ولعن الله من يقول فى رسوله أو في أحد من رسله مثل هذا القول.. ثم نسأل هذا الآدمى المتحدث سامى داود «أترضى هذا؟ وإذا قلت: إنى لم أكن أعرف! فيقال لك: فما الذى أدخلك فيما لاتعلم، حتى صيرت نفسك مؤرخا لفترة من الفترات التى عشتها فى الجامعة.. ومع ذلك فأنا أسألك، إذا كنت قد جعلت نفسك فى كلمتك مؤرخا، وجعلت نفسك ممن كان يقود شباب الجامعة، لتجمع الزعماء بالدماء ليقودوا معارك الحرية» أفلم تكن حقيقا بأن تعرف حقيقة ما أثار كلية الآداب وكلية الحقوق وغيرهما، حتى جاءوا يطالبون بإلغاء تدريس هذين الكتابين.. وأنت أيها الزعيم الشاب قد سميتهم «غزاة» جاءوا ليشتبكوا مع طلاب كلية الآداب فى معركة سخيفة تافهة!!».

«ولكنى محدثك، إذا لم تكن تذكر، بمن فرض هذين الكتابين على طلبة قسم اللغة الإنجليزية، أتعرف أم تنكر أنك تعرف أيضا؟، رجلا كان يقال له «كريستوفر سكيف» كان مبشرا جاسوسا بريطانيا محترفا،

وكان شرلتانا كصاحبك ـ يقصد لويس عوض ـ وقحا سيء الأدب، وكان قد ألف جماعة يقال لها «جماعة إخوان الحرية» أمرها مشهور في محاكمات الثورة، وكان يختار من الطلبة وغير الطلبة لهذه الجماعة شيعة وأعوانا، ويجعل للجماعة ظاهرا وباطنا: فالظاهر أن أكثره ممن يحمل أسماء مسلمة، والباطن «لا داعي لذكره» فأنت أعلم به ولا بأس، إذا كنت قد نسيت، أن أذكرك بأن صاحبك «أجاكس عوض» أهدى إليه كتابه بلوتولند وقصائد أخرى»،».

ومن المعروف أن الأستاذ شاكر كان قد أشار إلى هذا الديوان، كبداية للكتابة بالعامية.. باعتباره أول الطريق لهدم اللغة العربية، وقد فصل ذلك في كتابه «أباطيل وأسمار».

ولكن حساسية محمود شاكر الفائقة هذه تدل على كره مبدئي.. ولكنها إلى الآن لم تجب على جمعه بين المسيحية والوثنية.. فأخذت أشحذ فكري على نسق منهجه التذوقي.. وعدت إلى قراءاتي السابقة في الأدب الغربي وبالفعل وجدت أن كثيرا من مسرحياته ورواياته بالذات، تحمل إشعاعا من فكر الوثنية أو الأسطورية.. بل لقد نبهتني هذه الروايات بظلال حل لغز جمع التوراة إلى الإنجيل في الكتاب المقدس، ولماذا والتوراة ملأى بالأساطير التي إن كان البعض يرى فيها رموزا لنشأة الوحي منها إصحاحات كثيرة، لا أرى فيها مايدعو إليه دين سماوي، وإنما هي أقرب إلى الأساطير والوثنية التي ظهرت في المسرح اليوناني القديم مثل أوديب الذي تزوج أمه، وفيدرا التي عشقت ابن زوجها وغيرها وقد انعكس هذا النهج متداخلا مع ذاك في كثير

على القصص الغربية التى سبق لى قراءتها، عند مورافيا، ثم الصور الجميلة لسيمون دى بوفوار، ولن أنسى القصص التى قرأتها للدكتور طه حسين فى استهلال مجلة الكاتب المصرى التى كان يشرف عليها ويحاول أن يغرى القراء بقراءة مثل هذه القصص التى تدعو إلى زواج المحارم، ويمكن الرجوع مثلا إلى عدد أبريل ١٩٤٦ من مجلة الكاتب المصرى والذى نشر بها ملخص لقصة بعنوان : «الساحرة المسحورة» ليرى الدليل على ما نقول ، الذى يدعونا إلى تأمله التعاطف معه بدعوى إنها صروف الحياة، وأقول لهم: وأين موقف ديننا الحنيف منها وقد نهى عنها، إن كل شريف يمر بمثل هذه القصص وهو مشمئز.. وإذا تعاطف معها فليعرف إذن تأثير الأعلام السيىء على نفوسنا، حيث يجعل المرء يتعاطف مع مجرم بل يكاد يحذره من البوليس الذى يتتبعه، ويسخر من رجل متدين يشيح بوجهه عن راقصة متجردة.

ولم يفت ذلك الذى كان ينشره الدكتور طه حسين على بعض كتاب ذلك العهد، فظهرت المقالات التى تهاجم ما نسميه اليوم «الأدب الماجن» فرأينا مثلا الأستاذ توفيق دياب يكتب عن ذلك، كما أن الأستاذ محمد أحمد الغمراوى قد أشار إلى هذه القصص، وذلك فى رده الذى كتبه «النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى»، فقال: «وخذ إليك مثلا تلك القصص الفرنسية التى يترجمها صاحب الكتاب من آن لآن يلهى بها كثيراً من النشء ويضل بها كثيرا. هل ترى بينها وبين روح هذه الأمة صلة؟ أو بينها وبين روح هذه اللغة صله؟ وإذا لم يكن فيها شىء يجدد من عناصر الفضيلة والطهارة الروحية فى هذه الأمة يعينها على سبيل

العزة التى تريد؟ إنّا لا نظن أحدا دخل تلك القصص وخرج منها وهو أقرب إلى الفضيلة والعفاف منه قبل بدئها . وهذا أهون ما يمكن أن يقال عنها ولو كنا ضاربين مثلا لضربنا «الزنبقة الحمراء» فإن فيها من المعانى ما كنا نظن أن أستاذا يستحى أن ينقله للناس، أو أن مجلة مثل الهلال تتنزه عن نشره عليهم. . ولكنا نأبى أن نشير بأكثر من هذا إلى تلك القصص عامة وإلى هذه القصة خاصة، وإلا لكنا شركاء فى إثم النشر أو إثم التلخيص.

وما صنعه الدكتور طه فى القصص الماجنة يشبه صنيعه فى «حديث الأربعاء» حيث اختار النماذج الشاذة من أدباء العصر العباسى.. وترك أبا تمام والبحترى والشريف الرضى، ومهيار الديلمى والمتنبى والمعرى.

نستطيع بعد هذا أن نؤكد أن شاكر لا يكره الحضارة الغربية.. بقدر ما يكره أن نكتفى باصطباغ ما أبدعوه وأن نغمض عيوننا عن وسيلتهم للوصول إليه فالغرب لم يكتسب نهضته هذه، إلا بعد أن أولوا آثارهم اليونانية مزيدا من العناية والدراسة، حتى أزكت هذه الآثار، وكشفت جوهرها ، أى أن هذا العصر لم يتجاوز هذه الآثار إلا بعد أن اتكأ عليها، وأدخلها فى صميم بنيته.

وإذا أردنا أن ننتفع بتجارب الغرب، فلابد أن نسلك ما سلكوه من الرجوع إلى إرثنا ورجالنا، وفكرنا وآدابنا مهما أوغل فى القدم ثم نستخرج من تراثنا - هذا - ما تهدينا إليه عقولنا، وافق الذى عند الغرب أم لم يوافق - وإذا لم يوافق ذلك الذى عند الغرب.. فإن هذا

الخلاف سيكون فى صالحنا لأنه سيشق لنا الطريق المستقيم إلى حضارتنا نحن.. فإن الضد يميز الشيء والبذرة فى تربة ما يختلف ثماره عنه فى غيرها – المهم أن يوافق صريح عقولنا ولابد أننا سنرضاه ونستحسنه نحن بعيوننا، وعقولنا وسنجد فيه إن شاء الله كفاية لحاجتنا الفكرية والأدبية، وهذا مطلب عزيز وصعب، لن نناله إلا بالصبر والمجاهدة.. التى تعتبر كتابات محمود شاكر نموذجا منها.. وبها يشق الطريق لمن بعده.. إن هو قطع لامبالاته وانتبه ..

تهمتا السلفية والرجعية

بقيت لدى أخيرا من الأوصاف التى التصقت بمحمود شاكر تهمتا السلفية، والرجعية لذلك سأحتكم لشاكر نفسه فى تفصيلها يقول : «فمن معسكر الصراع بين الحضارة الغازية وبين الحضارة الإسلامية أو بقاياها يومئذ.. ظهرت كلمة «السلفيين» مقرونة بتبغيضها إلى العامة، وتصويرها فى صورة منكرة تكرهها النفوس لأنها تشق عليها ، ثم بدأت الكلمة تدخل فى محيط الصراع الإجتماعى فمن أول ما أذكر من ذلك أن التخلف الكريه المسمى «سلامة موسى» صنيعة المبشر «ويلككس» ، كان أكثر الناس استعمالا للفظ «السلفيين» للدلالة على التأخر والتشدد والتخلف، فى مقابل الدعوة التى أرسلها يغوى بها من اصطنعوه.. أى بعد دخول ثورة سنة ١٩١٩ ، فى انهيارها وانفصالها عن حقيقة الشعب الذى أشعل نارها ..

ولكن هذه اللفظة «السلفية» كانت شديدة على الألسنة، لا تلين بها كل اللين ، فبعد قليل – ولا أدرى كيف كان ذلك، لأن الأمر يعتمد على

التتبع التاريخى للعبارات يوما يوما، وشهرا شهرا، كما أرى - بعد قليل رأينا لفظ «الرجعيين» يحل محل السلفيين فجأة ، وهو لفظ سهل على لسان العامة وغير العامة، وإذا بنا نراه مستعملا على ألسنة ضرب من الكتاب أمثال التالف الغبى «سلامة موسى» ، من صبيان «التبشير» وسفهائه الذين يسافهون عنه وعلى ألسنة أصحاب الصحف من نصارى لبنان المقيمين فى مصر، والمسئولين على صحافتها يومئذ، ثم لم نلبث إلا قليلا حتى رأينا هذا اللفظ ينتقل للدلالة على الحياة الإسلامية كلها، واشتق له مصدر هو «الرجعية» يستعمله الكتاب إذا أرادوا التورية عن «الإسلام» تهربا من أن تنالهم تهمة الطعن فى دين الدولة، واستشرى الأمر زمانا طويلا ، فصار كل من أنكر شيئا على هذه الحضارة الأوربية المسيحية الوثنية، المقترنة بالغزو العسكرى والغزو السياسى لبلادنا من أخلاق أو فكر، أو عادة ، أو طريقة للحياة «كما يقول توينبى» صار ينبذ بأنه «رجعى» وظل هذا هو معنى «رجعى» إلى نحو من سنة ١٩٤٣ ، حين بدأت الحركة الشيوعية فى الظهور، فاستخدمت اللفظ على الأنظمة التى كانت تقاومها، لما فيها من الفساد والتعفن ، وإن كان اللفظ عندهم أيضا دالا على مثل ما كان يدل عليه أعوان الاستعمار والتبشير بالحضارة المسيحية الوثنية الغربية».

هذا بعض ما فصله رجلنا عن التهمتين اللتين ألصقتا به .. وبكل من يتمسك بدينه. أما حكاية .. كرهه للمستشرقين .. مع أن هؤلاء المستشرقين ، كانوا من الرواد فى الكشف عن تراثنا - كما كنا نحن بالنسبة للفلسفة اليونانية ، فإننى أرى محمود شاكر لا يسحب حكمه

على مطلق المستشرقين ذلك أننى أراه فى مقدمته لكتاب مالك يقول: «ولكن الشعر الجاهلى» قد صب عليه بلاءات كثيرة آخرها وأبلغها فسادا وإفسادا ذلك المنهج الذى ابتدعه مرجليوث لينسف الثقافة، فيزعم أنه شعر مشكوك فى روايته، وأنه مصنوع بعد الإسلام، وهذا المكر الخفى الذى مكره مرجليوث وشيعته، وكهنته، والذى ارتكبوا له من السفسطة والغش والكذب ما ارتكبوا .. كما شهد بذلك رجل من جنسه، هو آربرى، كان يطوى تحت أدلته ومناهجه وحججه، إدراكا لمنزلة الشعر الجاهلى فى شأن اعجاز القرآن، لا إدراكا صحيحا مستبينا ، بل إدراكا خافيا مبهما تخالطه ضغينة مستكينة للعرب والاسلام».

وقد يقول قائل : أن الأستاذ شاكر لم ينصف آربرى لكنى أقول: معه كل الحق .. إذ كيف يفهم من عرف العربية وهو فى الثلاثين من عمره .. معرفة مستدرك مستبين ولد عليها ، ثم لماذا يدرس العربية أصلا ..؟ هل لأنه يريد أن يتباهى على أهل جلدته الذين فاقوه فى معرفة لغتهم؟ .. أم أنه أراد أن ينفع بلاده؟.. فيكون لها جاسوسا وهذه بعض التساؤلات المثارة !.

★★★

أما القول الذى أطلق جزافا على محمود شاكر بأنه يحس شعورا زائدا بنفسه فكتاباته قد دللت على أنها لم تكن عظمة فارغة .. فأنا عندما قرأت كتبه وجدته قد دافع عن هذه الخصيصة التى سترد على خواطر القراء بلا ريب مثل قوله ، الذى يلزم قراءته كاملا واستبيان معانيه بدقة وموضوعية فى مقدمته «فصل فى إعجاز القرآن» «ولسائل

أن يسأل فحدثني إذن، لم بقي شعر الجاهلية بهذه المنزلة لم يتجاوزها؟ وكيف هذا الذى زعمت عن أئمة العلم من قبلك؟ وكيف أخطأه علماء البلاغه، وهم الذين قصدوا بعلمهم قصد الإبانة عن إعجاز القرآن، وهم أقرب بالتنزيل عهدا منا ومنك؟ وما الذى صد العقول البليغة عن سلوك هذا المنهج، وما نهضت إلا للمراماة دون إعجاز القرآن، فى القديم والحديث؟» .

«وحق عليّ أن أجيب ، ولكن يقتضى جواب هذه المسألة أن أقص قصة أخرى، لا أستوعب القول فى حكايتها تفصيلا، بل أوجز المقال فيها إيجازا مدفوعا عنه الخلل ما أطقت، وعلى سامعها أن يدفع عن نفسه الغفلة ما أطاق !

فأهل الجاهلية ، هم من وصفت لك منزلتهم من البيان، وقدرتهم على تصريفه بألسنتهم، وتمكنهم من تذوقه بأدق حاسة فى قلوبهم ونفوسهم، وعلمهم بأسراره، وتغلغلهم فى إدراك الحاجز الفاصل بين ما هو من نحو البشر، وما ليس فى نحو بيانهم، أهل الجاهلية هؤلاء هم الذين جاءهم كتاب من السماء بلسانهم هو فى آيات الله بمنزله عصا موسى، وابراء الأكمه والأبرص فى آيات أنبيائه لتكون تلاوته على أسماعهم برهانا قاهرا يلزمهم بالإقرار له بصحة تنزله من السماء على قلب رجل منهم، وأن هذا الرجل نبى مرسل، عليهم أن يتبعوه فلما كذبوه وأنكروا نبوته، تحداهم أن يأتوا بمثل هذا الذى يسمعون فى نظمه وبيانه.. ولكنهم ألجموا ألسنتهم إلجاما عن معارضته فى بيانه، لأنهم وجدوا فى أنفسهم مفارقته لبيان البشر، وجدانا ألجأهم إلى ترك المعارضة إنصافا

للبيان أن يُجار على حقه، وتنزيها له أن يزرى به جورهم على هذا الحق».

«وعلى الذى تلقوه به من اللدد فى الخصومة والعناد.. لم يلبث أن أستجاب له النفر بعد النفر.. فأقبل كل بليغ منهم مبين، يحفظ ما نزل من القرآن ويتلوه ويتعبد به».

«ثم صار للقرآن فى جزيرة العرب دوى كدوى النحل..».

ثم طار بهم هذا القرآن فى كل وجه، يدعون الناس أسودهم وأحمرهم إلى شهادة ألا إله إلا الله.. وهدى يخرجهم من الظلمات إلى النور. فكان من أمرهم يومئذ ما وصفه ابن سلام فى كتاب «طبقات فحول الشعراء» حين ذكر مقالة عمر بن الخطاب فى أهل الجاهلية: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه» فقال ابن سلام تعليقا على ذلك: «فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب فى الأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب. وألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير».

«ولا يغرك ما قال ابن سلام، فتحسب أن أهل الجاهلية الذين هداهم الله للأسلام، طرحوا شعر جاهليتهم دبر آذانهم ، فانصرفوا عنه صما «بكما» وخلعوه من عقولهم وألسنتهم كما خلعوا جاهليتهم، فهذا باطل تكذبه أخبارهم..»..

«وحيث نزل أهل الجاهلية الذين أسلموا ، نزل معهم الذكر الحكيم،

ونزل شعر الجاهلية وتدارسوه، وتناشدوه ، وقوموا به لسان الذين أسلموا من غير العرب».

«واستفاضت بالمسلمين الفتوح، واستفاض معهم شعر جاهليتهم ».

ثم فارت الأرض بالإسلام من حد الصين شرقا إلى حد الأندلس غربا، ومن حد بلاد الروم شمالا إلى حد الهند جنوبا وقامت المساجد فى كل قرية ومدينة وازدحمت فى ساحاتها صفوف عباد الرحمن وتحلقت الحلق فى كل مسجد، وتداعى إليها طلاب العلم فطائفة تتلقى القرآن.. وطائفة تتلقى تفسير الحديث وأخرى تتلقف شعر الجاهلية».

«وبعد دهر نبتت نابتة الشيطان فى أهل كل دين، وجاءوا بالمراء والجدل وأفضت الجرأة يوما برجل فى أواخر دولة بنى أمية، يقال له ، الجعد بن درهم.. كان شيطانا خبيث المذهب، تلقى مذهبه عن رجل من أبناء اليهود، يقال له : «طالوت ، فكذب القرآن فى اتخاذ إبراهيم خليلا، وفى تكليم موسى إلى هذا وشبهه وكان من قوله: إن فصاحة القرآن غير معجزة، وإن الناس قادرون على مثلها وأحسن منها!! فضحى به خالد بن عبدالله القسرى فى عيد الأضحى فى نحو سنة ١٢٤ من الهجرة».

«وكلام الجعد، كما ترى ، استطالة رجل جرىء اللسان، خبيث المنبت بلا حجة من تاريخ أو عقل». ثم يتابع شاكر رؤاه وحجته فيقول :

«ولم تكد دولة بنى العباس ترسى قواعدها حتى دخلت بعض العقول إلى فحص «إعجاز القرآن» من باب غير باب السفه والاستطالة، فقام بالأمر كهف المعتزلة ولسانها أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام، فأتاه

من قبل الرأى والنظر، حتى زعم أن الله قد صرف العرب عن معارضة القرآن، مع قدرتهم عليهم، فكانت هذه الصرفة هى المعجزة ، أما معجزة القرآن فهى فى إخباره، بكل غيب مضى، وكل غيب سيأتى وهذه مقالة لا أصل لها إلا الحيرة والابتهار بهذا الذى أعجز أهل الجاهلية وأسكتهم..».

«ثم كثرت اللجاجة بين هذه الفئات ممن عرفوا باسم المتكلمين ، وكان أمرهم أمر جدال وبسطة لسان، وغلبة حجة، ومناهضة دليل بدليل، حتى صارت مسألة إعجاز القرآن مسألة تستوجب أن ينبرى لها رجل صادق «١».

«ورضى الله عن أبى بكر الباقلانى، فقد جمع فى كتابه خيرا كثيرا واستفتح بسليم فطرته أبوابا كانت قبله مغلقة، وكشف عن وجوه البلاغة حجابا مستورا، ولكنه زل زلة كان لها بعد ذلك آثار متلاحقة وإن لم يقصد بها هو قصد العاقبة التى انتهت إليها».

فالباقلانى عندما هاج على من وازنوا القرآن ببعض الأشعار، من المتكلمين وأصحاب الجدل والملحدين. وهب إلى تسفيه هذه الموازنة .. لاسيما عندما بلغه أن بعض جهالهم يعدل القرآن ببعض الأشعار.. فلم ينتبه فى حماسته فى الرد على هؤلاء إلى منهاجهم قد استغرقهم.. فدعا

(١) إن تفضيل المتكلمين لبعض أشعار الجاهلية فى اختصارها عن القرآن يذكرك بالرسالة التى بعث بها محمود شاكر للأستاذ مصطفى صادق الرافعى والتى كتب عنها مقالته «كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة» .

هؤلاء و.. هؤلاء.. أن يعمدوا إلى أجود قصيدة يعرفونها من شعر أمرؤ القيس.. وجعل يفصلها وينقدها ويمحو محاسنها ويثبت، ويقف بهم على مواضع خللها.. ثم يأتى حكمه أخيرا: «وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها «الشعر الجاهلى» تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بينا فى الجودة».

«وقد طبق منهجه هذا على القرآن فانتهى إلى أن القرآن خالٍ من الاختلاف والتغير، وبراءته من كل ما يلحق كلام الناس من عيب وخلل، وكل ما هو قرين لضعف طبائعهم».

«أما زلة الباقلانى.. فهى أن موازنته هذه اقتصرت نتائجها إلى هتك الستر عن معلقة أمرىء القيس، ليكشف للناس عيبها وخللها، لا ليستخرج منها خصائص بيانها، كيف كانت هذه الخصائص مفارقة لخصائص بيان القرآن .. ولكن هذه الزلة، زل بها من بعده وأخطأوا .. وأخذوا الشعر الجاهلى كله هذا المأخذ، حتى أفضينا به فى العصر الحديث إلى أقبح الشناعة .. يوم فرض الاستعمار .. وأصبح الشباب يتعلم لغته على أنها درس محدد - فى آخر اليوم الدراسى أما الأنجليزى فكان أول حصة - فثقلت اللغة العربية بهذا التحديد المجرم على كل نفس، ثم لما أنشئت الجامعة، ودخلها هؤلاء الشباب على ما هم فيه من الملل بلغتهم ، ومن الإستهانة بأمرها، طلع قرن الشيطان بفتنة الشعر الجاهلى والتشكيك فى صحته، وطار الشر إلى الصحافة «١» فاتخذت اللغة القديمة كلها، لا الشعر الجاهلى وحده، مادة للهزؤ».

---

(١) أنت ترى أن ليست الصحافة فقط هى التى تهزأ باللغة العربية بل الأعمال الدرامية .. حتى يأتى المثقفين فيها على سبيل السخرية منها .

ويَنهى الأستاذ شاكر كلامه بقوله : هذا تاريخ مختصر للأسباب التى وقفت بالشعر الجاهلى حيث وقف قديما، فحالت بين علماء البلاغة والمنهج الذى كشفته وبينته، وكان لزاما عليهم وعلينا أن نسلكه لدراسة «إعجاز القرآن» دراسة صحيحة سليمة من الآفات.. أى اختلاف خصائص بيان القرآن، عن خصائص بيان البشر، على اختلاف ألسنتهم .. وأما بعد فعسى أن يكون الله قد ادخر لآخر هذه الأمة، بعض ما يلحقها بفضل أولها وتخرج بهديه الناس عن ضلالتهم.. ورحم الله مالك بن أنس إذ يقول: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها .. وأنا أعلم أنى قد قصرت فى ذلك كله واختصرت وإن كنت قد أطلت، وأخشى أن أكون أمللت، ولكن عذرى.. أن الرأى فيهما قد شابه ما كدره.. فبذلت جهدى أن أفحص القول .

هذا كله ، بطوله أو قصره.. هو ما بذله شيخنا شاكر فى الشعر الجاهلى وحده.. فما بالك .. بما بذله فى قراءة كل ما يقع تحت يده من كتب أسلافنا .. من تفسير لكتاب الله ، إلى علوم القرآن على اختلافها، إلى دواوين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وشروحها، إلى ما تفرع عليه من كتب مصطلح الحديث وكتب الرجال والجرح «١» والتعديل إلى كتب الفقهاء فى الفقه، إلى كتب أصول الفقه وأصول الدين «أى علم الكلام، وكتب الملل والنحل ، ثم كتب الأدب وكتب البلاغة، وكتب النحو وكتب اللغة، وكتب التاريخ ، وماشئت بعد ذلك من أبواب العلم ، ويقول

(١) هو علم نقد رجال الحديث الشريف .

هو إنــه عـمـد فى رحلتـه هذه إلى الأقـدم فـالأقـدم ، كل إرث آبائى وأجدادى ، كنت أقرؤه على أنه إبانة منهم عن خبايا أنفسـهم بلغتهم، على اختلاف أنظارهم وأفكارهم ومنهاجهم ، وشيئا فشيئا انفتح لى الباب يومئذ على مصراعيه ، فرأيت عجبا من العجب، وعثرت يومئذ على فيض غزير من مساجلات صامتة خفية كالهم، ومساجلات ناطقة جهيرة الصوت، غير أن جميعها إبانة صادقة عن هذه الأنفس والعقول».

وهنا اتساءل .. اليس من حق شيخنا شاكر وقد وسع علمه كل تلك العلوم ، وثابر وكابد المشقات فى التحصيل والتأصيل، والدفاع الجسور عن دين امته ولغتها وحضارتها بالحجة والبرهان.. اليس من حق ان يثق بنفسه ، لاغرورا كاذبا، وإنما حدبا على الحقيقة التى ضلت بين أهلها .

★★★

على أننى بعد أن كدت انتهى من غربلة وتصفية كل الأوصاف التى قيلت عنه، وجدت خاطرا غريبا يرفع رأسه ويطن فى وجدانى قائلا: لو كان والدك رحمه الله مايزال على قيد الحياة هل كان يأذن لك بزيارة الأستاذ شاكر؟ .. دارت هذه الفرضية العابرة فى ذهنى.. كما دارت كل أحداث حياتى فى ميزان رضا أو سخط أبى فى لحظات قصار. وكأنها فيلم طويل تستغرق أحداثه سنين متطاولة .. ولكن هذه النافورة التى يشكل رذاذها الأحداث التى مرت بى سرعان ما هدأت حتى تمكنت من فرزها واحدة واحدة.. وكان سندى هو أن أول ما عرف عن الأستاذ شاكر فى الحياة العربية هو نقده الشديد لأقوال وأفعال الدكتور

طه حسين وأحسب أن هذه الميزة وحدها ترضى عائلتى الأزهرى نصفها والدرعمى نصفها الآخر.. واللذان قد يختلفان حول كثير من القضايا وفقا لخاصية الدراسة فى كلا الأزهر ودار العلوم لكنهما .. قد ألتقيا فى إدانة دعوة طه حسين لانتشار المدارس ومجانيتها رغم ان التعليم كالماء والهواء، ويرياها دعوة هدامة تلبس ثوب الإنسانية، فالنصف الأزهرى كان يرى أن هذه الدعوة لا تخرج عن كونها انتقاما من الأزهر الذى فشل فى الحصول على عالميته.. حتى لا يذهب إليه أحد مادامت كل المدارس ستكون بالمجان وليس الأزهر، وحده، والنصف الدرعمى رآها مسايرا لدعوته «لابد من هدم قرطاجة وإن طال الزمن» أى إلغاء كلية دار العلوم والاكتفاء بقسم اللغة العربية بكلية الآداب - التى تمثل فيها بكلمة الزعيم الرومانى أيام عدوان الرومان على أهل قرطاجة «تونس» الآن. وهكذا التقيا بالوجدان الناصع قبل العقل الساطع، فالكتب التى ألفت فى الرد على أفكار طه حسين حول هذا الموضوع فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» اشارت إلى أن دعوته لنشر المدارس على النظام الأوربى. كان حيلة المؤلف لإلغاء الأزهر الذى لا يستطيع المجاهرة بإلغائه، لأن وقت ذلك لم يحن بعد، فيطالب أولا بأن تشرف الدولة على التعليم الأولى والثانوى فيه مادام مصرا على أن يستقل بهما لنفسه، لأننا لو تركنا الفتيه والأحداث للتعليم الأزهرى الخالص، ولم تشملهم عناية الدولة ورعايتها وملاحظتها الدقيقة المتصلة، عرضناهم لأن يصاغوا صياغه قديمة، وباعدنا بينهم وبين الحياة الحديثة التى لابد لهم من الاتصال بها والاشتراك فيها أنظر على على نحو ما تعرض له

«الفصل الثالث من كتاب الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر «قديم وحديث» .

ولأن أفكار شاكر قائمة بذاتها، فلا أحسب أن والدى رحمه الله كان سيعارض هذهِ الزيارة .. فكتاباته كما عرضتها أمامكم وأمام نفسى تدل على شعور بالواجب الثقافى تجاه وطننا العربى، ومسئوليته أمام ضميره، وأمام التاريخ ولم تكن هجرته إلى الحجاز ولا محاولته مفارقة الحياة عن شعور سلبى، أما عزلته فهى إيجابية فى نظرى - ومن خلال ما كتب عنها من مقالات - ذلك أنها كانت تنكر المنكر.. ويلتمس فيها هذا العزاء الذى لا يلتمسه إلا عظماء الرجال وذلك أن الخديعة لا تحب العزلة .

وأنا أرى أن كتابات شاكر تمهد هذا الطريق إلى الفلاح وعلى من يقول: إن أداة محمود محمد شاكر هى محض لغة. أدعوه أن يتذكر قوله تعالى «خلق الإنسان علمه البيان» ومن الغريب أن أستمع - عرضا- إلى برنامج «العلم والحياة» وكانت الحلقة عن القواميس ، أن أحد الصحفيين سأل مكتشف الألكترون عن أهم اختراع يفيىء العالم كله إلى ظله - وقد توقع الصحفى أن يقول العالم ، إنه الذرة أو الالكترون أو الليزر ولكنه وجد العالم يقول اللغة وتحديدها .. بمساعدة القواميس .

وهذا العالم محق فيما قاله .. ذلك أننا نسمع كل يوم أن الاختراعات الحديثة كالكمبيوتر مهددة بجرثومه تمحو أثرها فى أقل من الثانية .

أما اللغة فليست مرآة الفكر كما يقول المتحذلقون.. إنما اللغة إبداع العقل والوجدان جميعا، واللغة طريق المعرفة الكاملة، والذين قالوا إنها توفيق من الله تعالى لم يبعدوا عن حقيقة أنها مساوية لأثمن ما فى الإنسان ، للروح التى نفخها الله فيه. بل لا تفسر لضعف شوكة العرب وانحلال هممهم إلا لإنحلال لغتهم، والمعانى التائهة البلهاء ضرب من الانحلال ، والشقشقة اللفظية التى تسمى خطأ بلاغة ضرب آخر .

فالكلمة هى البيان و«البيان هو نعمة الله الكبرى التى أنعم بها على عباده من كل جنس ولون . فمن استهان بالكلمة فقد استهان بأفضل آلاء الله على عباده ، وبالنعم الكبرى التى أخرجته من حد البهيمة العجماء ،إلى حد الإنسان الناطق بل إن الثقافة بعلومها وآدابها وفلسفتها، عالة على الكلمة فالكلمة إذن هى كل شىء .